

المقفع

قصته بقلم فاطمة العلاف

اني لاذكرها أمي « الهانية » ! مشوقة القوام ، صلبة العود..
حادة النظرات .. غليظة الصوت .. خشنة اليدين .. اني لاذكرها ،
والمنزلة على ظهرها والحمار امامها .. رجلاها الحافيتان تدق بهما
الارض دقا كأنها تنتمل حذاء جندي الميدان . اني لاذكرها - أو ان
الحرث - تحرث وتسمد ، وتشذب ، وأوان الحصاد ، تحصد ،
وتدرس ، وتصفي ، وتخزن . هي في الحقل كذلك ، وفي البيت
تفدو امرأة ككل النساء ترفق صوتها ، وتلاطف زوجها ، وتعجسن
الخيز وتنصحه في الطاجين ، وتقطع « الشكشوكة » وتمدها حارة
زكية الرائحة .

كانت تحبني ملء قلبها وتقول لي :

« عليك أعول ، يا أسمر .. أنت سندي

وكنت اهتز واقفز حولها واصرخ :

« لا يا أمي ، أخي شعيان أثير عندك ، تحببته أكثر مني .

« وما يدريك ، يا سنان ؟

« أين هو الآن ؟ أين أنا .. هو في الدار يتمتع مع أبيه بالظل

الظليل .. وأنا هنا معك ، يا أمي ، في حرق الشمس ، ولفسح

السموم نحصد ونجمع ونعبيء .

« يا سنان ، هل يصح ان يلوث أبوك الحاج المؤدب المبرور يديه

بالتراب ؟ هل يصح أن يتعرض أخوك شعيان لحرق الشمس ، وبشرته

سمحه بيضاء وقد عاد من الجندية منذ ايام بعد ان غاب عنا سنوات

طويلة ؟ .. وعلى كل ، فكر في ان العامل أفضل من الخامل .

« لولا انني احبك ، يا أمي ، وأشفق عليك ، لكان لي موقف

آخر .

« اعتمادا على ذراعي القويتين وغزالي الاسمر . هيا بنا ياسنان

.. احزم شبكة السنابل ، واربطها بالحبل على ظهر الحمصار ..

هيا يا ولدي هيا .

* * *

تعالت الزغاريد ، ودقت الطبول ، ولعب الفرسان فوق الخيول

ببهلوانية تفتح الاحداق وتثير الحماس . وكنت أدعي الشباب ، وأنا

في أواخر الطفولة ، فاستعرت حصانا مسرجا مدريا بديعا ..

واستمرت بندقية مملوءة . وشرعت أتفرسن .. أظهر فروسياتي فسي

يوم عرس . وقفت فوق الحصان . واطلقت البارود وصرخت لتحي

الحرية ، ليسقط الاستعمار .. واختلطت في أذني الاصوات .

ودارت الارض من حولي . وفر الحصان من تحتي .. ودهستني سنانك

الخيل ... وفقدت الوعي ! ...

« أفق يا ولدي .. ارحم أمك .. أجبني .. أجبني !»

وفتحت عيني بصعوبة . ووضعت كفي اليمنى على رأسي فاذا
به قد من نار بينما تمددت ذراعي اليسرى بجائبي وكأنها قطعة
من خشب ليست مني ، ولست منها .

« خبريني ، يا أمي ، ماذا حدث لي ؟

« أواه ، يا ولدي ، أنت لم تشعر بشيء .. قل لي ، يا ولدي ،

ماذا تحس بيسراك ؟

وحاولت ان احرك ذراعي فصرخت من الألم المر :

« آه ! .. آه ! .. ماذا حدث لي ؟ أين أبي ، يا أمي .. أين

أخي ! ..

ومن خلال دموعها المسكوبة انساب الطر قالت :

« ما زال في دار العرس يسهران .

واضافت بنبرة ذات معنى :

« وياكلان الكسكس واللحم .

* * *

واصبح صباح وأمّت بيتنا جموع جديدة ككل صباح . وكانت

يدي معلقة في عنقي ، وقد زاد انتفاخها حتى صارت في حجم المزود

المملوء .. وكان صراخي متعاليا للسماء ، وأنيبي يقطع ضلوعي ويشير

حولي الرثاء والدموع ، والخذ والرد .

« الراي أن نذهب به الي زيارة الولي الصالح «سيدي سلامة»

فبركاته معروفة وطالما شفى امراضا مزمنة .

« ولكن لا بد من التمسيد بزيت الزيتون المحمي أربع مرات

في اليوم .

« او نسيتم جبيرة دقيق الحمص ؟

« لماذا لا نجرب الكي بالنار ؟

« ولا تففلوا عن كلام الله العظيم الحكيم ، فهو خير شاف وعاف .

وتتنهد أمي طويلا قبل ان تقول :

« لو كان لي مال لبعثت بابني الي طبيب المدينة .

* * *

كانوا يعلنون صهوات الجياد ، ويضحكون بأعالي الاصوات ،

ويتناوبون الحذاء .. أخي شعيان وابناء عمي ، وعلي ، وأبو القاسم

والامين .. كانوا يفيضون صحة وشبابا وحيوية تكاد الدنيا لا تسمعهم

من فرط ابتهاجهم بالربيع والنسوار والشمس والريح والامسل

المتشود .

واعتمد على نفسك فانت رجل واي رجل . »

وفي العاصمة الغربية عني عرفت في ايامي الاولى التيه والجوع والبرد والنوم على الارصفة ، والصد ، والنفور ، وانتهى بي المطاف ان اصبحت نزيلا طويل الإقامة بمستشفى « الرابطة » . لقد تمقصد مرصي فتعقد علاجي وطال . جرحوا عنتي مرة أولى ، وجبسوا يدي مسنقمة لمدة أربعة أشهر . ويوم كشفوا عنها الجبس وجدوها خشبة لا تتحرك فاعلنوا فشل العملية .. جرحوها مرة ثانية وجبسوها مطوية الى أعلى وبعد أربعة اشهر كشفوا عنها الجبس فوجدوها حديدة لا تتحرك .. فاعلنوا فشل العملية وقرروا بترها .

فهمتهم بالرغم من تحاورهم بلغة غير لغتي .. فهمتهم بحدسي وعذابي ويأسي .. وكانوا يقررون وكنت اقرر .

* * *

جلبوا ابني عن طريق السلطة الرسمية وسلبوا منه امضاه على وثيقة البتر .. اقنعوه بان حياتي في خطر ، وان خير الحلول البتر ، اما أنا فلم يستشيروني في شيء ، يا لها من ليلة لا أنساها ما حبيت ! .. ترصدت فيها القوم حتى ناموا . ثم تسللت من سياج الحديقة وفرت .. فررت بروحي وبذراعي التيمسة . وما فكرت في شيء .. كنت اجري ، والهت ، واتساقط على غير هدى ، والعرق يتصبب مني ويخلط برذاذ المطر .. فررت بمنامة المستشفى القطنية الخفيفة وتركت كل ما املك من بسيط المتاع حتى الدريهمات التي جمعها طيلة اقامتي في المستشفى من خدمتي للنزلاء العابرين تركت كل شيء وفررت .. ويل لي ! اترضى بي ابنة عمي زوجا لها وانا مبتنور السدراع ؟

ولكن الى أين ؟

لقد ضبطتني الشرطة واعادتني الى مصيري المحتوم .

* * *

قد يدهشك يا حفيدي العزيز اذا قلت لك : انني تقبلت بعد ذلك مصيري المحتوم بكل رضا ، واقتمت حياتي من بعد ، وشيدت مصيري بساعد واحد ومع ابنة عمي البدوية الوفية .

لقد أقنعني هو رحمه الله ذلك السيد الفرنسي الكريم .

لقد كان طبيبا سمع بتفاصيل قصتي بعد ان داعت فسي المستشفى ، وكتبت عنها حتى الجرائد ، واثارت شتى التعاليق .

فاستدعاني الى مكتبه - قبل الدخول الى بيت العمليات - ورحب بي . وقدم لي كأسا من عصير الموز ، وحدثني بقصة له قديمة فاذا هي شبيهة بقصتي وظروفي

- انظر يا سيد سنان ان لي رجلا من خشب ومع ذلك فانا رجل كامل كما تراني .. طيب .. متنف .. رب عائلة .. ولا تعجب ياسيد سنان اذا قلت لك : انني كنت طفلا مهمملا وان بتر رجلي هو السبب الوحيد الذي حفزني الى شق طريقي في الحياة بشجاعة . فانكبت على الدرس والتحصيل ، واعتمدت على نفسي في كل شيء خشية ان يتهموني بالعجز ، ويشفقوا علي ، ويمدونني بالساعدة .

* * *

كان ما قاله الطبيب اهم درس لي في الحياة .

فاطمة سليم العلاني

كانوا يمشون في المقدمة وكنا ، انا سنان المتعب العليل ومجموعة شيوخ الاحمره ، نسير في المؤخرة .. بلغنا صمت ثقيل .. انا انود بهمي والي والاحمره تنوء باحمالها الثقيلة من حب وزيتون وسمن وعسل ودجاج وارانب وسويق وبيض .
وفجأة تاخر شعبان عن اصحابه ليقول لي :

- اترك لي الحمار .. ان ركوبه اريح من ركوب الحصان
- ولكن لا قدرة لي على الاهتزاز مع فرسك الجموح ، يا اخي .
- قلت لك اترك لي الحمار . ولا تتكلم كثيرا .. كاني بك نسيت من انا ، ومن انت !

- ذكرني من انا ومن انت !

- عندما نعود اسأل « الهانية » أمك تخبرك .

فقدت توازني على ظهر الفرس ، ولعبت الخواطر السوداء براسي . ومن خلال الالم والضعف والدوار رايتني فارسا واقفا على صهوة جواد اطلق النار في الفضاء .. ودارت الارض من حولي .. وفر الحصان من تحتي ودهستني سناك الحمير .

* * *

- اسمع يا سي شعبان . هذا الولد قريبك .

- نعم ، ياسيدي الدكتور ، هو اخي .

- افهمني جيدا .. ذراع اخيك في حالة خطيرة تقتضي عملية جراحية .. ادفع خمسين الف فرنك وعد بعد اسبوع لتأخذ اخالك من مصحتي وقد زال عنه كل خطر .

- خمسون الف فرنك يا دكتور .. هذا مبلغ كبير يكفي لتجهيز عروس لي .

- اذن اذهب لتجهز عروسك . وخذ اخاك معك يشاركك في الافراح والمسرات .

وصفق الطبيب الفرنسي الباب وانا بقسوة وهو يشتم ويسخر ، وفي طريق العودة انتحبت .

- يا شعبان ، يا خوية «ما يحس الجمره كان الي يغمس عليها»

- يا سنان تذكر قدرة الله .. كم من اناس مرضوا وشفوا .

- خمسون الف فرنك يا شعبان تكفي لانقاذي .

- خمسون الف فرنك ، يا سنان تكفي لشراء قطع من الاثنام .. تكفي لشراء عدة هكتارات من الارض .. تكفي للقيام بمصاريف زواجي .. الا تريد ان تفرح لي ؟ سأشتري لك اجمل كسوة في المدينة .. الست سخيفا حين تفضل اعطائها لذاك الرومي الخلوف ؟

- يا شعبان ، يا خوية ، ذراعي توجعني .

- اعتمد علي ولا تخف .. انظر هذه المخلاة ! لقد ملاتها لسك بالراهم والعقاقير ، تصيدتها من كل مكان .

* * *

وفي يوم كان فيه والدي مسترفا في لعب الورق مع شيوخ القبيلة يشربون الشاي الغائر ، ويتجادلون : يذكرون العمر ، والجندي ، والحرب ، والثورة ، والنار ، والدمار ، كانت أمي تجمع حوائجي وزادي ، ثم تشيعني بعد حين حتى الطريق المعسدة خلف القرية وتقبل رأسي وتقول « ليوفك الله يا أسمر ، ليشفك الله يا ولدي .. اذهب الى العاصمة واقصد المستشفى الكبير ...